سوسيولوجيا الاستخدام: بين الاتجاهات الميكروسوسيولوجية والتوجهات الماكروسوسيولوجية

الأستاذة: بوصبع سلاف
جامعة أمحمد بوقرة بومرداس
البريد الالكتروني: soulefbousba@gmail.com

الملخص:

إن المتتبع لسوسيولوجيا الاستخدام يلحظ جليا أن هذا المنظور، قد ولد بعد التحول الذي مس مقتربات الدراسة الاتصالية وانتقل بها من فكرة" التعرض" لوسائل الاتصال الجماهيري وما تحتويه من نظرة سلبية للجمهور إلى فكرة" التلقي" والتي تعبر عن استخدام نشط وفعال لمختلف التكنولوجيات الاتصالية، أي الانتقال من التساؤل عما تفعله وسائل الإعلام بالجمهور بوسائل وتكنولوجيات الاتصال إلى ما يفعله هذا الأخير بمختلف الأدوات الاتصالية ، فانتقل الاهتمام بذلك من دراسة الأثر التي تتركه وسائل الإعلام إلى دراسة المستخدم المنتج لنمط من الفعل الفردي والمشخصن، وقد تبلور هذا الاهتمام نظريا ومنهجيا في مقاربة ميكروسوسيولوجية تقوم على دراسة الفرد أو الجماعة كوحدة تحليل، بعيدا عن أساليب التكرار والنمطية المستعملة سابقا في دراسات الجمهور، ولكن هذا التركيز على البعد الميكروسوسيولوجي في الدراسة لم يدم طويلا، إذ بدأت تظهر بعض الضرورات النظرية والمنهجية التي تدعو إلى التجديد، فالاستخدام كفعل فردي، هو أيضا فعل مؤطر بالسياق الاجتماعي الذي يوجد فيه، فهو وإن تمظهر على شكل ممارسة ميدانية، إلا أن هذه الممارسة تنبني بالضرورة على تمثلات المستخدم للأداة، وهذه التمثلات تنبع لا ريب من مخزون التمثلات الاجتماعية، أي أنه وإن وجدت الممارسة على المستوى الميكروسوسيولوجي فان تمثلها يوجد على المستوى الماكروسوسيولوجي، كما أن اندماج تقنية ما في نسق اجتماعي معين سيخلق علاقة جدلية الإنتاج وإعادة

الإنتاج للممارسات بين التقنية والمجتمع، وهذا ما خلق تحولا ثانيا في سوسيولوجيا الاستخدام، عبر عنه بعض المفكرين في دعوات إلى مفصلة الاتجاهات الميكروسوسيولوجية والتوجهات الماكروسوسيولوجية لتحليل ظاهرة استخدام تكنولوجيات الإعلام والاتصال.
الكلمات الدالة :سوسيولوجيا الاستخدام،
الاتجاهاتالميكروسوسيولوجية ;التوجهات الماكروسوسيولوجية، دراسة الجمهور، التعرض لوسائل الإعلام، تلقي المضامين الاتصالية .

The resume:

The usage sociology follower observes very well that this perspective, was born after the transaction that touched the communicative study approaches and devolved It from an idea of exposure to the communication means and the public negative views that it contains to an idea of receiving that it expresses an active and effective usage of different communicative technologies, which is the transaction from questioning what the media is doing to the public with the communication technologies , thus the heed of the media's effect study shifted to a study of the producer 's patterns of singular and personnel action , and this heed took shape theoretically and methodologically in the approach of a micro sociology of the individual or the community study as analysis unite, far from the redundancy and typical methods previously used in public studies , but this focus on this micro sociology dimension on the study didn't last long ,as some theoretical and methodological necessities started to show up which called for renovation , the usage as individual act is also an act framed by the community context which it exist in , even if it looked like a field practice , these practices is built by necessity on the user representations on the tool, and these representations rise without a doubt from the social representations supplies , if it's found on a micro sociological level then it's representation is found on a macro sociological level , also the incorporation of some technicality in a selected social layout will create a dialectic relation of production and reproduction of the practices

between technology and society , and that's what create a second transaction in the usage sociology, some intellectuals manifested it in invitations to articulation of the micro sociology directions and the macro sociology orientations to analyze the communication technologies usage phenomenon.
key words : usage sociology; micro sociology directions; macro sociology orientations ; audience studies; medias exposure; receive the communication means.

تعتبر سوسيولوجيا استخدام تكنولوجيات الإعلام والاتصال من بين الدراسات الحديثة نسبيا، والتي تحاول رصد العلاقة بين هذه التكنولوجيا والسياق الاجتماعي التي تستعمل فيه، ليس من منظور سببي تقني ولكن وفق مقاربة سيوسيوتقنية، تبحث في العلاقة بين التقني والاجتماعي وكذا تداعيات وتجاذبات هذه العلاقة المتبادلة في السياق الاجتماعي، آخذه بذلك الطابع السوسيولوجي، الذي يعطي استخدام التقنية، بعده الاجتماعي .

ودراسة الاستخدامات إن أمكن القول، هي إحدى المنظورات الحالية لدراسة الجمهور والتي خلفتها تغيرات وتطورات على مستوى البناء السوسيولوجي والجانب التقني للمجتمعات الحالية, مما أوجد ضرورة تغيير منطلقات دراسة الجمهور ومستويات تحليل هذه الدراسة, وهذا ما خلق جملة من التساؤلات حول المنحى الجديد الذي انتهجه هذا المنظور من جهة وحول المنطلقات النظرية والتاريخية لميلاد سوسيولوجيا الاستخدامات وكذا مرتكزاتها المنهجية ومقارباتها النظرية من جهة أخرى ومن ثم الإشكالات المنهجية التي لحقت به مما خلق دعوة إلى تجديد نظري يجمع بين الاتجاهات الميكروسوسيولوجية والتوجهات الماكروسوسيولوجية ,وعليه سنحاول رصد هذه العناصر و تتبع البعدين الميكروسوسيولوجي والماكروسوسيولوجي في سوسيولوجيا الاستخدامات على اعتبار أنهما يشكلان الإطار المنهجي والنظري الذي يؤسس للتحولات التي طالت هذه الأخيرة وذلك في محاولة لإماطة اللثام عن زاوية جديدة من هذا المنظور الذي لا يزال مجالا شبه مجهول في الأدبيات الاتصالية العربية أمام الانتشار الكبير الذي يعرفه خصوصا بالنسبة للبحث

الاتصالي الفرانكفوني ,الذي تجاوز مرحلة البحث والدراسة في هذا السياق إلى مرحلة التقييم وبالتالي الدعوة إلى التجديد التي ذكرنا آنفا والتي تعد من أحدث الإشكالات المطروحة حاليا ومن هنا تنبع الأهمية العلمية لهذا الموضوع .

1. المنطلقات النظرية والتاريخية لميلاد سوسيولوجيا الاستخدامات :

من الناحية التاريخية، نلاحظ أن انتشار وسائل الإعلام المختلفة قد خضع للدراسة والتحليل عبر عديد المراحل، تمفصلت حول التغيير في زاوية التحليل، فنما بذلك اتجاهان نظريان لدراسة الجمهور: اتجاه نقدي والآخر وظيفي امبريقي، لتتراوح مرجعياتهما النظرية بين فلسفة اجتماعية حتمية للاتجاه الأول، متمثلا بداية في مدرسة فرنكفورت من خلال أعمال كل من أدرنو وهوركايمير Adrno, Horkemeir وماركيوز Marcuse وهابرماسHabermes ....إلخ الذين "ركزوا على الطابع الأيديولوجي للتقنية كايديولوجيا مجسدة ولكنهم لم يهتموا بعمقها الاجتماعي" (Granjon,2004) عبر أطروحات عديدة في دراستهم الناقدة للثقافة الجماهيرية مثل" الصناعة الثقافية" والإنسان ذو البعد الواحد...الخ .

في حين هناك من يرى أن الدراسات الثقافية متمثلة في مدرسة برمانغهام " Birmingham "(Centre for contempory cultural studies)بانجلترا هي التي تعكس المقاربة النقدية للدراسات الإعلامية، وهي " تشمل مجموعات مختلفة من التيارات ولكن ضمن توجه واحد: تجديد البراديغم النقدي في دراسة الاتصال الجماهيري" (Millerand,1997) فلم تبتعد هذه المقاربة هي الأخرى عن دراسة الثقافة الجماهيرية التي تحلل " كتمظهر للعلاقات بين الأفراد والطبقات الاجتماعية في سياق اجتماعي وسياسي خاص في المجتمعات الرأسمالية، ووسائل الإعلام تعتبر جزءا مندمجا في نظام التفاعل الرمزي، ومشاركا في إنتاج عالم رمزي" (Ibid.) .

وبين هذا وذاك يبقى أن نقول أن المقاربة النقدية في الدراسات الاتصالية تميزت على العموم بمنظور نقدي للظاهرة الاتصالية متمثلة في البداية بدراسة

الثقافة الجماهيرية كانعكاس جوهري لوسائل الاتصال الجماهيرية في المجتمعات ولاحقا في نقد العلاقة بين تكنولوجيات الإعلام والاتصال والمجتمع في إطار دراسات ماكروسوسيولوجية ووفق مقتربات سيوسيوسياسية واقتصادية تبحث في الأنساق الكلية لاستخدام هذه التكنولوجيات، غير آبهة بتجليات الظاهرة في مستوياتها الجزئية وذلك وفق نظرة نقدية كلية.

وعلى الضفة الأخرى، برزت مقاربات أخرى في الدراسات الإعلامية والاتصالية أو بالتحديد في دراسات جمهور وسائل الإعلام الجماهيري، تستند على حتمية سببية تقنية في غالبها (باستثناء نظرية الاستخدامات والاشباعات كما سنرى لاحقا)، ووفق منظور وظيفي امبريقي.

وقد مثل هذا الاتجاه العديد من الدراسات والنظريات مثل نظرية القذيفة السحرية، نظرية لولب الصمت، نظرية التدفق على مرحلتين، نظرية الغرس الثقافي... وغيرها مما سمي بنظريات التأثير التي تتأسس على بديهية التأثير" الحتْمي" لوسائل الاتصال الجماهيري، من زاوية وظيفية وذلك بالبحث في الأدوار والوظائف التي تمارسها هذه الوسائل والتقنيات إزاء جمهورها، بأساليب وطرق كمية إحصائية تعطي هذا الاتجاه طابعه الامبريقي رغم وجود اختلافات بين نظريات وأطروحات هذا الاتجاه من حيث مستويات التحليل من جهة، ومن جهة أخرى حول قوة ومدى تأثير وسائل الاتصال الجماهيري.

2. ميلاد سوسيولوجيا الاستخدامات: التوجه إلى الميكروسوسيولوجي

إن المتتبع لتاريخ الدراسات الاتصالية، سيلحظ جليا تحولا وتغيرا في مرجعيات هذه الدراسات، والانتقال بذلك من رصد العلاقة الحتمية بين وسائل الاتصال الجماهيري والجمهور" إلى التركيز على مصير الرسالة بعدما يتلقاها الجمهور الانتقائي القوى والفعال والنشيط الذي أعيد له الاعتبار نتيجة تغيير إستراتيجية البحث إلى(ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام؟)" (قسايسية 2006، 2007، ص 124).

وقد ظهر التحول في كلا اتجاهي الدراسات الاتصالية فكان أن تمثل في براديغم الاستخدامات والاشباعات بالنسبة للبحث الامبريقي الأنجلوساكسوني والذي

استحدث مفهوم الجمهور النشيط الذي يملك القدرة على اختيار ما يريد التعرض إليه من بين مختلف المضامين الإعلامية الموجودة وضمن مرجعيات فردية وجماعية محددة، مغيرا بذلك النظرة السلبية لهذا الجمهور ومحولا المنحنى الذي اتخذته كل دراسات تيار التأثير قبله، ومؤسسا في الوقت نفسه لتوجه جديد في الدراسات الاتصالية .ولكن هذا التوجه أبان عن نفسه أكثر في الدراسات الثقافية بعد ظهور ما يسمى دراسات التلقي التي عمقت الدور النشط للجمهور بالانتقال من" التعرض" لوسائل الإعلام وفق نمط موحد ومكرر، إلى " تلقي" المضامين الإعلامية بطريقة فردية ومشخصنة، مانحه بذلك " العمق الاجتماعي للاستخدام" لأن "التلقي أصبح يفهم كعملية معقدة، تنطوي على الموارد الثقافية ، وتؤدي إلى بناء ذاتي للمعنى "(Jouét,2000).

هذا المنظور الجديد وفد من الدراسات الأدبية وعلى رأسها دراسة " فولفغانغ ايسر Wolfgang Iser وهو واحد من كبار المدافعين عن " استجابة القارئ ، يشرح رأيه:....العمل أكثر من مجرد نص فالنص لا يخرج إلى الحياة إلا عند تحققه، فضلا عن ذلك فالتحقق ليس مستقلا بأي حال من الأحوال عن مزاج القارئ." (Iser,1988,p212) في (آسابيرغير,2012,ص 88) و هذا ما سيخلق استقلالية للمعنى، كما أن "تعدد معاني الرسائل، يتيح إمكانيات كبيرة لقراءات محتملة، والتي تفرضها أو تتحكم فيها الدرجة الاجتماعية للمتلقي، هذه الأخيرة تحدد من خلال السياق الاجتماعي والثقافي الذي يوجد فيه هذا المتلقي"(Millerand ,1997) وبانتقال هذا المنظور إلى الدراسات الاتصالية، في ثمانينات القرن الماضي، "سجل توجه جديد للباحثين نحو الطريقة التي تؤول بها الرسائل من قبل المستقبلين، ومن هنا كان موضوع الدراسة هو " لحظة الاستقبال" الذي حلل كممارسة مؤسسة ثقافيا واجتماعيا وكمسار تكون المعنى من قبل المشاهد". (Ibid.)

وفي هذا السياق تعتبر دراسة دفيد مورلي.Morley D من بين أهم الدراسات وأولاها ,والتي تأسست على هذه المقاربة ووفق نموذج الترميز- فك الترميز لستيورات هال S. Hall ، إذ حاول مورلي شرح المسافة الفاصلة بين المضمون الإعلامي والمتلقين في سياق اجتماعي وثقافي معطى " من أجل فهم آلية التأويل

لمشاهد خاص إزاء منتج تلفزيوني خاص" (.Ibid)، حيث اهتم في البداية بتحليل تلقي المضامين التلفزيونية أو ما أسماه " بسياق المشاهدة" ثم انتقل محور اهتمامه بعد ذلك إلى " التكنولوجيات المنزلية للإعلام" التي بدأت في الانتشار في نهاية الثمانيات وبداية التسعينيات مستعملا في ذلك المنزل(الأسرة) كوحدة للتحليل، ومستندا على مقاربات اثنوغرافية في البداية ثم مقاربات امبريقية، واثنوغرافية من أجل فهم الدينامكية المنزلية للتكنولوجيات وربطها بالسياقات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية لكل عائلة وهذا ما يسمح بتسييق (من السياق) ظاهرة التلقي وفهمها في بعدها الطبيعي .

إذن ،شكل هذا تحولا في الدراسات الاتصالية، وهذا ما خلق انتقالا من مساءلة وسائل الإعلام وما تفعله بالجمهور إلى مساءلة هذا الجمهور وما يفعله بوسائل الإعلام والانتقال بذلك من ممارسات نمطية ومكررة إلى ممارسات مسيقة اجتماعيا ومشخصنة في الوقت ذاته، ومن هذه المساءلة وانطلاقا من المقتربات السابقة ولدت سوسيولوجيا استخدامات تكنولوجيا الإعلام والاتصال كتوجه نظري فرضه الظهور المتنامي لهذه التكنولوجيات، وما رافقه من تغييرات عميقة مست البني الاجتماعية والثقافية والسياسية.....الخ.

وقد ولد هذا التقليد البحثي في فرنسا على يد" ميشال دوسرتو M. de certeau ، الذي نشر سنة 1980 مع عدد من أعضاء فريق بحثه كتابا معنويا بابتكار اليومي "L'invention du quotidien (Proulx ,2005A) لتلتحق به جملة من الدراسات والأطروحات التي تنتظم كلها في مصفوفة الدراسات المكروسوسيولوجية والتي ارتكزت على دراسة الظاهرة الاتصالية متمثلة في استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال كفعل فردي مشخصن (من الشخصنة) وكممارسة مؤسسة ثقافيا واجتماعيا في سياق سوسيوثقافي معين، متخلية نوعا ما عن الأساليب الكمية الإحصائية كمسوح الجمهور لرصد تكرارات التعرض المنمط وكثافته (حسب الاتجاه الامبريقي) ومستعملة أساليب ومناهج اثنوغرافية كيفية باعتماد الفرد أو الجماعة كوحدة تحليل و كذا تطبيق أدوات بحثية وعلى رأسها الملاحظة بالمشاركة والمقابلة الموجهة، "فخطوات الاثنوغرافيا تفرض نظرة شاملة من الملاحظ الذي يبحث عن ملاحظة الحالة (الوضعية) في

أدق تفاصيلها دون أخذ موقف(من خلال الرأي أو القيم)" (Gingras , le belanger et proulx ,2003,p236)..

إذن هذا التحول في مسار الدراسة من تحليل التعرض إلى التلقي ومن سلبية الجمهور إلى الفعالية والنشاط ومن الجمهرة إلى الفردانية المشخصنة المؤطرة اجتماعيا، صاحبه انتقال في أساليب البحث ومناهجه وأدواته لمجاراة هذا المنحنى الجديد، إذ ناءت الدراسات بنفسها في إطار منظور الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجيات الإعلام والاتصال عن أساليب التحليل الكمية، وحاولت تحليل تمظهرات هذا الاستخدام الفردية والمشخصنة والمسيّقة (من السياق) اجتماعيا، فكان أن استعملت " الأسرة" بداية كوحدة لتحليل المشاهدة التلفزيونية في بداية ثمانينات القرن الماضي مع " مورلي" (كما أسلفنا)، ثم انتحت أكثر نحو تجزيء هذه الوحدة لتصبح الفرد ، ولكن ليس بمعزل عن النسق الذي يحويه والذي يؤثر فيه ولو بدرجات وأنماط مختلفة من خلال تحليل مختلف الممارسات وأنماط الفعل الفردية، وهذا ما أكسب هذه الدراسات الطابع الميكروسوسيولوجي و الذي "يقصد به وضع مجموعة من المجموعات الاجتماعية تحت التحليل والدراسة المنهجية لمعرفة القوانين الداخلية التي تحكمها، ويمكن النظر إلى ذلك القوانين الداخلية على أنها تنظيم الممارسات والسلوك الاجتماعي الداخلي"(البطريق 2004، ص 92).

3. سوسيولوجيا الاستخدام: مقتربات وبراديغمات.

تشير سوسيولوجيا الاستخدمات "إلى اهتمام ملاحظ لنمط من المشكلات التي تقع في تقاطع ثلاث تخصصات، سوسيولوجيا التقنية وسوسيولوجيا الاتصال وسوسيولوجيا أنماط الحياة" (Chambat ,1994) ، إذ عكفت على بحث تجاذبات العلاقة بين التكنولوجيا، الاتصال، والمجتمع وتحليلها وفق أساليب مختلفة وانطلاقا مما سبق، ظهرت العديد من المقاربات البحثية في سوسيولوجيا الاستخدام، انقسمت إلى عدة تيارات بحثية تتفق حول منظور الدراسة ولكنها تختلف من حيث مستويات وأبعاد ونماذج التحليل المتبعة، أولها برادبغم الانتشار" الذي يرتبط بتحليل اعتماد(تبني) ابتكار تكنولوجي معين لحظة انتشاره .... التقنيات المستعملة في هذه المقاربة هي مناهج أساسا كمية،و تظهر

على شكل استبيان" (Millerand ,1998) وذلك لرصد معدلات الاستخدام بحسب المجموعات الاجتماعية ثم تحديد الفوارق في الاستعمال وتحليلها في إطار المحددات السوسيوديمغرافية والاقتصادية.

ثم لدينا برادبغم الابتكار والذي يحاول ربط التجديد أو الابتكار التقني بالتجديد أو الابتكار الاجتماعي، وذلك بدراسة الاستخدامات كممارسات يومية وربطها بالأبعاد الماكروسوسيولوجية، و"هو بهذا يحاول مد جسر بين المناهج التي تركز حصرا على تحليل عملية الابتكار وتلك التي تركز حصرا على تحليل الاستخدامات "(Ibid.) ويمكن أن ندرج في هذا السياق المدرسة التأويلية "والتي تولي الاهتمام لامتزاج الاجتماعي والتقني في أدوات الحياة اليومية، (أكريش، كالون ولاتور Acrich, callon et lateur " (Chambat,1994) وفي الأخير نجد برادبغم التملك الذي يركز في تحليله على ما يسمى البناء الاجتماعي للاستخدامات، و"يتميز بأربعة تمظهرات:

*حول الدور المنتج(الفعال) للمستخدم ....والذي غالبا ما يتم التطرق إليه ضمن مقاربات اثنوغرافية أو ميكرو سوسيولوجية... .

*حول الفجوات مقارنة مع معيار الاستخدام المسبق(الموصوف) في العرض التقني....

*حول دلالات الاستخدام، بمعنى آخر، التمثلات والقيم التي تستثمر في استخدام تقنية أو أداة.... .

*حول عمر ومدة تكون الاستخدامات "(Ibid.)، أي مراحل تكون استخدام أداة ما في نسق اجتماعي معين."وعلى الصعيد المنهجي، تتميز الأبحاث التي تندرج ضمن هذا البرادبغم بتفضيلها للمناهج الكيفية... والتي تتميز خاصة بالمقاربات الاتنوغرافية... ومع ذلك وبالنظر إلى كثرة وتنوع الإشكاليات .... المناهج السوسيولوجية الكمية وكذا تحليل الخطاب، مستخدمة بالموازاة"(Millerand ,1999).

هذا ويضيف بعض المفكرين، برادبغمات أخرى في سوسيولوجيا الاستخدام مثل" الميكروسوسيولوجيا(الأثنوميتودولوجياEthnométhodologie

التفاعلية(Coein,2004) والسوسيوسياسي والسوسيولوجيا النقدية للاستخدامات (Vitalis1994)" (Proulx ,2005B).

4. بين الميكرو والماكرو سوسيولوجي، تجليات جديدة للبعدين الفردي والاجتماعي في التحليل

إذن، يظهر مما سبق ذكره، أن سوسيولوجيا الاستخدمات اتخذت لنفسها- في الغالب- الفعل الفردي كوحدة للتحليل، وتمثل هذا في رصد ممارسات الأفراد اليومية أثناء تعاملهم مع مختلف تكنولوجيات الاتصال والإعلام، أي دراسة تملك هؤلاء الأفراد لهذه الوسائل.

فمن هذه الناحية " فضلت سوسيولوجيا الاستخدامات مقاربة فردية وذاتية تحتوي أساسا على مكون معرفي ومكون هوياتي، في حين التملك يحتوي أيضا على بعد سياسي وجماعي, هذا البعد الذي كان حاضرا في بداية سوسيولوجيا الاستخدمات في نهاية الثمانينيات والذي استبعد تدريجيا بعد ذلك" (Brotcorne ,Damhuis ,Laurent& vendramin ,2010 ,p21) ، فتملك تقنية ما يحوي على بعدين فردي واجتماعي إذ أنه يستند أيضا على عملية توظيف الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية للفرد، فهو " ينطوي على تأكيد مزدوج : التفرد والانتماء الذي يرتبط بالجسد الاجتماعي"(Jouét,2000)، فهو يتمظهر على شكل ممارسات فردية مشخصنة نابعة من الهوية الشخصية لكل فرد ومؤطرة بسمات هذا الأخير كتحكمه في التقنية والدراية(Savoir faire) والمهارات العملية لذلك، ولكنه في الوقت نفسه محكوم بجملة التمثلات والقيم التي يملكها هذا الفرد والتي تنبع بالضرورة من نسقه الاجتماعي والثقافي، فإذا كانت هذه الممارسة هي التجلي الواقعي للتملك، فإنها مؤطرة بمجموعة من المعاني والدلالات التي يعطيها الفرد لهذه الممارسة أو تلك، وهذه الدلالات والمعاني ليست إلا انعكاسا للتمثلات الاجتماعية لهذه الأداة وللقيم المجتمعية التي يضفيها عليها السياق، فان كانت الممارسة تقع على المستوى الميكروسوسيولوجي، فان تمثلاتها توجد على المستوى الماكروسوسيولوجي.

وعلى صعيد آخر، يلاحظ المتتبع لخارطة الاستخدامات في الفضائين العام والخاص، التداخل الصارخ بينهما، أي بين الفردي والجماعي فالحسابات

الشخصية على شبكات التواصل الاجتماعي أصبحت مثلا مجالا للمناقشات والقضايا السياسية بامتياز، حيث" تؤكد البحوث سهولة اختراق الحدود وتؤكد كذلك على تحرر المعالم الحديثة للفضائين العام والخاص." (.Ibid)

وتأسيسا على ما تم ذكره،ولأن المعطيات الواقعية، تفرض الضرورات المنهجية البحثية تعالت أصوات الباحثين (شومبا ،1994 وجوي، 2000و قرانجون ، 2004 و برولكس ،2005،2006) تدعو إلى " التجديد في سوسيولوجيا الاستخدامات التي كانت مبنية على مرجعية محيط تكنولوجي متفرد و مجزأ." (Brotcorne et al.2010 . p21) "فسوسيولوجيا الاستخدامات الكلاسيكية أخطأت عندما اتجهت إلى التركيز على الفاعلين الفرادى" (Proulex ,2005 ,B) ومنه "وجب إعادة موقعة استخدامات أجهزة الاتصال في مجموع الممارسات الاجتماعية أين يتم فهم الاستخدامات في ديناميكية تعيد موقعة دلالاتها الاجتماعية"(Chambat , Jouet,1996) في (Jouet,2000) فظهرت بذلك الدعوة إلى المزاوجة أثناء التحليل بين المستويين الميكروسوسيولوجي والماكروسوسيولوجي لمحاولة تفسير الاستخدام في بعديه الفردي والاجتماعي أي كممارسة أو نمط للفعل المشخصن المؤطر بجملة القيم والتمثلات النابعة من السياق الذي يحويه، فقد" حان الوقت للتفكير في تمفصل مستويا التحليل هذين، بطريقة جديدة، وهي من جهة مقاربة التفاعلية والميكروسوسيولوجية لاستخدامات الوسائل والأجهزة ومن جهة أخرى، تحديد التغيرات المزامنة لذلك من خلال رصد هذه التفاعلات على مستوى ماكروسوسيولوجي" (Proulx ,2005,B).

وفي هذا الصدد سنحاول تقديم تصورين نظريين لطرح التجديد في سوسيولوجيا الاستخدامات من أجل "الجمع بين مستويي التحليل والبحث عن مفصلة السلوكات الميكروسوسيولوجية والاتجاهات الماكروسوسيولوجية" (Chambat,1994) ، أولها هو تصور برولكس S .Proulx ، أحد رواد المدرسة الفرنسية في سوسيولوجيا الاستخدام، والذي يقترح نموذجا تحليليا يفضل تسمية" البناء الاجتماعي للاستخدامات" على اعتبار أن التقنية لا تملك بعدا تقنيا بحتا بل تنبني اجتماعيا،و هنا يضع برولكس ثلاثة محاور تعزز حفل دراسة الاستخدامات (Proulx ,2006):

- إعادة الدراسة المفاهيمية لمفهوم الاستخدام والأخذ بعين الاعتبار في الوقت ذاته ممارسات الابتكار والاستعمال، وهذا ما يؤدي إلى عملية التنسيق الديناميكي بين مصممي ومستخدمي هذه التقنيات .
- منح الاعتبار لبيئة الاستخدام المكونة حسبه من فواعل بشرية وغير بشرية(الأدوات)، وبالتالي الدعوى إلى تحليل الممارسات في السياق التنظيمي الأوسع بدل العلاقة الضيقة بين الأفراد والأجهزة .
- تسليط الضوء من قبل بعض المقاربات السوسيوسياسية على رهانات السلطة(الهيمنة) نظرا لتطور استخدامات خاصة في سياقات تنظيمية معينة .

ووفقا لذلك يرى أن هناك ثلاث مسارات أو ميادين لدراسة الاستخدام أولها التفكير في الاستخدام كعملية معرفية لا تكمن فقط على مستوى ذهن المستخدم وإنما تتموقع اجتماعيا ومنه وجب التركيز على السياقات التي تهيكل ممارسات الاستخدام، وثانيها أن الاستخدامات الفعلية أو المتخيلة للفرد تنبع من تمثله لوظائف التقنية، "وأن هذه التمثلات الفردية لهذه الأدوات الإعلامية، تنشأ في سياق اجتماعي أوسع، فهناك تفاعل بين هذه التمثلات الذهنية الفردية ومخزون التمثلات الاجتماعية"، (.Ibid) ، وأخيرا كون الاستخدام يندرج ضمن محيط معرفي يتشكل من شبكة من الفاعلين البشريين والفواعل غير البشرية التي يتهيكل بداخلها،" فلا وجود لعملية تقنية بحتة: الجهاز التقني لا يتكون فقط من عناصر تقنية، إنه يحمل دلالات اجتماعية ويفتح أفقا ثقافيا وسياسيا ....ويظهر أن مسألة المعاني الاجتماعية للأدوات التقنية ضرورة أساسية لفهم نقدي وسياسي للاستخدامات"(Proulx ,2005,B)، وعلى أساس ذلك يقترح برولكس خمسة مستويات لتحليل الاستخدام باعتباره بناءا اجتماعيا، مما يوفر فئات تحليلية مناسبة لتأويل الممارسات الملاحظة، يُعنى المستوى الأول منها بالتفاعل بين الجهاز التقني والمستخدم، فيما يبحث المستوى الثاني في التنسيق بين مصمم الجهاز التقني ومستخدمه أو بين الممارسات المفترضة للمصمم والممارسات الفعلية للمستخدم، أما المستوى الثالث فيقوم بتحليل أنماط استخدام التقنية المتموقعة في سياق خاص من الممارسات الاجتماعية أو ما يمكن تسميته " تجربة المستخدم"، فيما يرصد المستوى الرابع تقننة الممارسات

الاجتماعية بعد اندماج التكنولوجيات الاتصالية في النسق الاجتماعي على اعتبار أن" التقنيات هي حوامل لتمثلات وقيم سياسية وأخلاقية." (Stourdzée 1987 , Winner 2002) في(Proulx ,2005,A) فيما ينتقل المستوى الخامس والأخير إلى تحليل" الجدلية بين الهياكل الكبرى التي تتصرف كمحددات اجتماعية للاستخدام، في الوقت نفسه تتحكم بهذه الهياكل، الممارسات الفعلية(الحية) للفاعلين." (Proulx ,2005,A)

يبقى أن نقول أن هناك أطروحات أخرى تقترب مما ذهب إليه برولكس، إذ نجد شومبا P. Chambat يرافع عن فكرة أن " الاستخدام ليس أداة عادية، ولكنه بناء اجتماعي"(Chambat ,1994) إذ يرى أن انتشار تكنولوجيات الإعلام والاتصال لا تحدث في فراغ اجتماعي، بل تتداخل مع ممارسات موجودة، وعليه هو يدعو إلى الاهتمام بهذا المستوى من الحقيقة .

وعلى نفس الصعيد، نجد فيلسوف التقنية فينبورغ A.Feenborg الذي يدعو لما أسماه" البنيوية النقدية" والتي تعني تحليل الأدوات والتقنيات كبناءات أو كتشكيلات اجتماعية. و "هو منظور يتجاوز الوضعية المسماة لامعرفة "agnostique" المقاربات الوضعية الرافضة لمواجهة التحديات الكبرى العامة للحداثة"(Proulx ,2006) .

وفي نفس السياق النقدي نجد الطرح الثاني لصاحبه قرنجون F.Granjon والذي يقترح مقاربة نقدية للاستخدامات الاجتماعية لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، إذ يأخذ على سوسيولوجيا الاستخدمات، النقص المسجل على مستوى النقد، وعليه يؤسس لسوسيولوجيا نقدية يجب أن تستوفي حسبه، الحد الأدنى لضرورات أربع، تتجسد الضرورة الأولى في" إبداء الاهتمام بتعدد الأشكال الهيكلية للتحكم والتي مورست من قبل المجتمع .....هذا التعدد، لا ينبغي أن يمحى من قبل مقاربات اقتصادية والتي تحدد في نهاية المطاف كل الروابط الاجتماعية، وعلى العكس من ذلك، لا يجب أن يقود أخذه بعين الاعتبار إلى فردية إنتولوجية (وجودية)،" (Granjon ,2004)، وثاني هذه الضرورات هو التأكيد على الجدلية بين السلوكات الميكروسوسيولوجية والتوجهات الماكروسوسيولوجية، وثالثا هي ضرورة إعادة تحليل العامل التقني" معتبرين أن

التقنية يمكن أن تفهم كعلاقة اجتماعية مادية Matérialisé "(Ibid.) وذلك لفهم كيفية تأثير هذه التقنيات على النسيج الاجتماعي، وكيف بعيد هذا النسيج إنتاج الأجهزة التقنية، وأخيرا وجوب إيلاء نفس القدر من الاهتمام إلى كل من المحددات الاجتماعية المؤطرة للنشاطات الاتصالية وكذا للممارسات المختلفة الناجمة عن الأجهزة السوسيوتقنية .

5. وختاما :

ويبقى في الأخير أن نقول أن سوسيولوجيا الاستخدمات والتي تأسست من التقاء رافدين نظريين يختلفان من حيث المنطلقات والمسارات مستندة على التحول في منظور التيارين النقدي والوظيفي ،انتحت بداية الأمر منحى اثنوغرافيا في الغالب قائما على مستوى التحليل الميكروسوسيولوجي بعد أن أوغلت في إعطاء الأهمية للفعل الفردي المشخصن الذي فرضته أولويات الدراسة، والتي فرضت فيما سيلي ضرورات تحليلية أخرى، اقتضاها وجود هذا الفعل الفردي في سياق اجتماعي ووجود علاقة جدلية بين التقنيات المختلفة والمجتمع الذي تندمج منه، وهذا ما جعل مستوى التحليل الميكروسوسيولوجي يعجز عن تفسير هذا الفعل في كليته وفي علاقته بالهياكل الكبرى وجعل حقل سوسيولوجيا الاستخدام حقلا مجزأ وهنا خلقت الضرورة المنهجية الداعية إلى مفصلة مستويي التحليل الميكروسوسيولوجية والماكروسوسيولوجية للاستجابة للنقص المسجل على مستوى دراسات سوسيولوجيا الاستخدمات .

قائمة المراجع :

- آسابيرغر ،آ(2012). وسائل الإعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية. تر: ص.خ أبو أصبع. الكويت: سلسلة عالم المعرفة .
- البطريق, ن,أ(2004). الإعلام والمجتمع في عصر العولمة: دراسة في المداخل الاجتماعية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- Brotcorne , P& Damhuis ,L& Lauvent, v& valenduc, G& vendramin, p(2010) ,diversité et vulnérabilité dans les usages des TIC, La fracture numérique au second degré. Gent : Academia press.

- Gringras ,A,M& Le bélanger, D& Proulx, S(2003). La communication politique : Etat de savoirs, enjeux et perspectives. Canada : Presse de l'université de Québec.
- قسايسية، ع، (2006، 2007). المنطلقات النظرية والمنهجية لدراسات التلقي، دراسة نقدية تحليلية لأبحاث الجمهور1995-2006.أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر.
- Chambat, P(1994). Usages des technologies de l'information et de la communication(tic) : Evolutions des problématiques. Consulté le 20/12/2015 de http:base pub. Dauphine.fr.bitstreamhande 123456789/0991
- Granjon, F(2004). Des quelques éléments programmatiques pour une sociologie critiques des usages sociaux des TIC. Consulté le 08/01/2015 de http:// archivesic.ccsd. cnrs.fr/sic-00001136v2/2 decem2004
- Jouet, J(2000). Retour critique sur la sociologie des usages. Consulté le 13/04/2016 de http://www.persee.fweb/revues/home/ prescript/ article/reso- 0751-7971-2000-num-18-100-2235
- Millerand, F(1997).David Morley et la problématique de la réception consulté le 03/02/2013 de www.commposité.Org/php/rewe/article/download/8/7.
- Millerand, F(1998).Usages de NTIC. Les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation.1ere partie consulté le 25/05/2008 de http:// commposite. Org/v1/98.1/articles/ntic-1htm
- Millerand, F(1999).Usages de NTIC. Les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation.2e partie consulté le 25/05/2008 de http:// commposite. Org/v1/99.1/articles/ntic-2htm.
- Proulx, S(2005A).Penser la conception de l'usage des objets communicationnels : vers un constructivisme critique. Consulté le 06/05/2016 de http:// www.serge proulx.info.
- Proulx, S(2005B).Penser les usages des TIC aujourd'hui : Enjeux , modèles, tendances. Consulté le 10/03/2012 de serge proulx.uqam.ca/wp-content/ uploads/2010/12/2005-proulx- penser- les- usa-13.pdf.
- Proulx, S(2006).Pour comprendre l'usage des objets communicationnels ,repenser le constructivisme. Consulté le 28/9/04/2016 de docplayer.Fr/ 47279779- pour- comprendre-l-usage- des- objets- communications-re- penser- le- constructivisme .

الهوامش :

1) Granjon, F(2004). Des quelques éléments programmatiques pour une sociologie critiques des usages sociaux des TIC. Consulté le 08/01/2015 de http://archivesic.ccsd. cnrs.fr/sic-00001136v2/2 decem2004.

2) Millerand, F(1997).David Morley et la problématique de la réception consulté le 03/02/2013 de www.commposité.Org/php/rewe/article/download/8/7.

3) Ibid.

4) قسايسية، ع، (2006، 2007). المنطلقات النظرية والمنهجية لدراسات التلقي، دراسة نقدية تحليلية لأبحاث الجمهور1995-2006.أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر.ص 124

5) Jouet, J(2000). Retour critique sur la sociologie des usages. Consulté le 13/04/2016 de http://www.persee.fweb/revues/home/ prescript/ article/reso- 0751-7971-2000-num-18-100-2235

6) آسابيرغر،آ(2012). وسائل الإعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية. تر: ص.خ أبو أصبع. الكويت: سلسلة عالم المعرفة .ص88.

7) Millerand ,1997 .op.cit.

8) Ibid.

9) Ibid.

10) Proulx, S(2005A).Penser la conception de l'usage des objets communicationnels : vers un constructivisme critique. Consulté le 06/05/2016 de http:// www.sergeproulx.info

11) Gringras ,A,M& Le bélanger, D& Proulx, S(2003). La communication politique : Etat de savoirs, enjeux et perspectives. Canada : Presse de l'université de Québec.p236

12) البطريق, ن,أ(2004). الإعلام والمجتمع في عصر العولمة: دراسة في المداخل الاجتماعية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.ص 92

13) Chambat, P(1994). Usages des technologies de l'information et de la communication(tic) : Evolutions des problématiques. Consulté le 20/12/2015 dehttp:base pub. Dauphine.fr.bitstreamhande 123456789/0991

14) Millerand, F(1998).Usages de NTIC. Les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation.1ere partie consulté le 25/05/2008 de http:// commposite. Org/v1/98.1/articles/ntic-1htm

15) Ibid.

16) Chambat, op.cit.

17) Ibid.

18) Millerand, F(1999).Usages de NTIC. Les approches de la diffusion, de l'innovation et de l'appropriation.2e partie consulté le 25/05/2008 de http:// commposite. Org/v1/99.1/articles/ntic-2htm.

19) Proulx, S(2005B).Penser les usages des TIC aujourd'hui : Enjeux , modèles, tendances. Consulté le 10/03/2012 de serge proulx.uqam.ca/wp-content/ uploads/2010/12/2005-proulx- penser- les- usa-13.pdf.
20) Brotcorne , P& Damhuis ,L& Lauvent, v& valenduc, G& vendramin, p(2010) ,diversité et vulnérabilité dans les usages des TIC, La fracture numérique au second degré. Gent : Academia press.p 21
21) Jouét . op.cit.
22) Ibid.
23) Brotcorne et al. op.cit.
24) Proulx ,2005,B. op.cit.
25) Jouét . op.cit.
26) Proulx ,2005,B. op.cit.
27) Chambat, op.cit.
28) Proulx, S(2006).Pour comprendre l'usage des objets communicationnels ,repenser le constructivisme. Consulté le 28/9/04/2016 de docplayer.Fr/ 47279779- pour- comprendre-l-usage- des- objets- communications-re- penser- le- constructivisme .
29) Ibid.
30) Proulx ,2005,B .op.cit.
31) Proulx ,2005,A. Op.cit.
32) Ibid.
33) Chambat .op.cit.
34) Proulx ,2006. Op.cit.
35) Granjon.op.cit.
36) Ibid.